المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية
The national center for research
and scientific studies

ورقة بعنوان:

فيضاناتُ درنة تكشفُ المستور!!

أ.د أحمد الهادي رشراش

عضو اللجنة الاستشارية العلمية

بالمركز القومي للبحوث والدراسات العلمية

درنة الزاهرة، مدينة الياسمين، تلك المدينة الليبية الساحرة الساكنة بين أحضان الطبيعة، القابعة بين البحر والجبل، تتخلّلها الوديان والسهول والشلالات، ويشطرها مجرى وادي درنة، أحد أكبر الأودية في ليبيا، إلى شطرين، وتطلّ على البحر الأبيض المتوسط شمال شرق ليبيا، في منطقة الجبل الأخضر، على بعد 1.302.5 كم، عن العاصمة طرابلس، وعلى بعد 292.6 كم،عن مدينة بنغازي، وعلى بعد 168.9 كم،عن مدينة طبرق مقرّ البرلمان الليبي، وهي مدينة تاريخية تسمّى مدينة الصحابة؛ لوجود ثلاثة أضرحة لصحابة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم –ومقبرة الصحابة بها، بجانب مسجد الصحابة.

في صبيحة يوم الاثنين 11 سبتمبر 2023م، استيقظ أهل مدينة درنة، والشعب الليبي، وشعوب العالم،على فجيعة إنسانية مؤلمة، تسبب فيها وقوع إحدى أكبر الكوارث الطبيعية في العصر الحديث، متمثلة في ضرب إعصار دانيال الخطير مدن الجبل الأخضر في الشرق الليبي،سوسة وشحات والبيضاء والمرج وغيرها، ولكنّ الداهية الكبرى وقعت في مدينة درنة؛ جرّاء انهيار سدي الوادي؛ ففاض الماء، وانهمر بسرعة جنونية، وأخذ كل ما في طريقه من منازل وأشجار وسيارات وبشر؛ ورمى به في البحر، فاختفى ربع المدينة (25%) تقريبًا، من الوجود؛ وما زاد الأمر سوءًا هو وقوع هذه الكارثة ليلًا، وأغلب الناس نيام، مع شدة الظلام الحالك الذي تسبب فيه انقطاع الكهرباء؛ فصعبتْ على الناس سبلُ النجاة!

لقد سُمِعَ ذويّ انفجار قويّ لسد وادي درنة ما بين الساعة 2:00 و 3:00 في تلك الليلة الحالكة السواد؛ فانحدر الماء بسرعة جنونية من أعلى الجبل إلى أسفل المدينة، واختلطت مياهه بمياه البحر، أحياءٌ وقرى في مدينة درنة اختفت بأكملها، غرقت المباني العالية، والسيارات بمختلف أنواعها وألوانها، وقضى الآلاف من سكان مدينة درنة الجريحة نحبهم، بعد لحظات من الرعب والخوف؛ شيوخ وعجائز، رجال ونساء، شباب وأطفال، واجهوا مصيرًا محتومًا، لم يصل إلى خيال صانعي السينما في هوليوود ولا بوليوود، فاقت مشاهد غرق سفينة التايتانيك، وذكرتنا بغرق قوم سيدنا نوح، ونجاته هو ومن ركب معه في السفينة، ولكنْ ما هي إلا ساعات قليلة من وقوع الكارثة، حتى جاء أمر الله – سبحانه وتعالى–فلطف بعباده، وكأنما أصدر الأوامر للأرض وللسماء وللماء مرة أخرى،كما فعل عند غرق قوم سيدنا نوح عليه السلام، بقوله – سبحانه وتعالى–:﴿**وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي**﴾سورة هود الآية 44، فانخفض منسوب المياه بشكل كبير، ونضبت السماء؛ فأخذ الماء يتناقص ويتراجع؛ ومات من مات، ونجا من نجا، في مشهد مأساوي تفاعل معه العدو قبل الصديق، وحل بالمدينة دمارٌ في الأرواح والمنازل والممتلكات العامة والخاصة، وصارت أشبه بمدينة أشباح، أو ببلاد قصفت بقنبلة نووية.

وفي ظل غياب الدولة، وعدم وجود مؤسسات حقيقية في ليبيا، واجه الآلاف من أبناء مدينة درنة مصيرهم، الضحايا بالألوف، والمصابون بالألوف، والنازحون بالألوف! لقد كان ضغطُ المياه كبيرًا جدًّا، وجد أمامه بنية تحتية قديمة متهالكة، وإهمالًا ملحوظًا في صيانة السدود، وسرقة كل معداتها من المولدات، وكابلات الكهرباء، ومعدات التحكّم، ومعدات المراقبة، وغير ذلك، من العبث والجرائم التي قُيدتْ ضدّ مجهول خوفًا من مرتكبيها!

ويبقى الشعب الليبي منتظرًا الإجابة عن تساؤلات عدّة: ماذا حدث؟ وما سبب انفجار سدّي درنة؟وهل فعلًا أنّ كمية الماء التي هطلت في تلك الليلة كبيرة جدًّا، وغير مسبوقة، وتفوق حمولة استيعاب السد؟ أو أنّ السبب هو الإهمال والتقصير في الاهتمام بالسدود وصيانتها؟ وفي جميع الأحوال، من هم المسئولون عمّا حدث؟ كل هذه التساؤلات وغيرها، لا يمكن الإجابة عنها بمجرد تخمينات، بل تحتاج إلى دراسات متخصّصة، وتحقيقات نزيهة، ومعلومات موثوقة من جهات الاختصاص، والأهم من ذلك هو القصاص ممن تسبب في هذه الفجيعة، ولو بالإهمال!

لقد كشف هذا الطوفان العظيم المستور عن هشاشة الدولة الليبية، واستشراء الفساد فيها، وربما كان العزاء الوحيد فيما حدث هو لم شمل الوطن، إذ فزع الليبيون من كل فج عميق؛ لنجدة إخوتهم في مدن الجبل الأخضر، بعد سنوات من الحروب

والاقتتال والجفاء السياسي، جسر من قوافل الإغاثة، غير مسبوق في تاريخ الإنسانية،يصل إلى مدن شرق ليبيا،من كل مدن غرب ليبيا وجنوبها وشرقها؛ لكن الضريبة كانت باهظة الثمن!فهل يكون هذا الدرس القاسي عبرة للشعب الليبي للالتفات إلى بناء الدولة والاهتمام ببنيتها التحتية؟ وهل سيستفيق الشعب الليبي من سباته؟ أو أنه سيعود مجدّدًا للارتماء في أحضان جلاديه؟ ووضع مصيره بين أيدي المارقين؟!

أ.د أحمد الهادي رشراش

عضو اللجنة الاستشارية العلمية

بالمركز القومي للبحوث والدراسات العلمية